لغز اختفاء العمالقة ؟

يا طالما سحرتني قصص العمالقة , الغول العملاق في جاك وحبة الفاصوليا , مارد القمقم الجبار في حكايات ألف ليلة وليلة , العمالقة الحديدية في أفلام الخيال العلمي ... إنها كائنات جبارة تبعث في النفس مزيجا من القوة والغرور والغموض , فهذه الأجساد الفارعة تكتنف حتما على قوة هائلة , ومن لا يعشق أن يكون قويا ؟ .. والقوة تتسم غالبا بالغرور , وهو غرور مقبول , فحين تكون بطول مبنى من ثلاث طوابق فأنت شئت أم أبيت مجبر على أن تنظر بتعالي إلى أولئك الصغار الذين يسعون تحت قدميك . هذا الغرور المدجج بالقوة الجبارة هو أيضا مبعث الغموض الذي يكتنف هذه العمالقة , إذ كيف بلغت ما بلغت من الضخامة والطول ؟ .. كيف ظهرت للوجود وكيف تعيش ؟ .. والسؤال الأهم هو لماذا اختفت ؟ .. وهل كان لها وجود أصلا أم أنها لم توجد أبدا سوى في عالم الخرافات والأساطير .

هل نعلم كل شيء ؟

بالطبع لو سألت عالما ماديا متخصصا بالتاريخ أو علم الأحياء عن الغول العملاق القابع فوق شجرة الفاصوليا الهائلة التي نبتت في حديقة جاك لضحك ملء شدقيه وأجابك بثقة : "لا وجود للعمالقة " .

لكن كيف ؟ .. وماذا عن كل ذلك التراث الشعبي والديني عنهم , كيف لا يكون لهم وجود ؟ .. ستسأل حتما , وسيجيبك قائلا : "طيب لو كان

لهم وجود فأين هي بقاياهم ؟ .. آثارهم .. مدنهم .. نحن نعلم بأن الديناصورات هي كائنات عملاقة عاشت على الأرض فعلا قبل ملايين السنين لأن لدينا الآلاف من القطع والهياكل العظمية المتحجرة التي تدل على وجودها , في حين لم نعثر على هيكل عظمي واحد يعود لعملاق " .

كلام علمي سليم , لكن دعنا نسأل ببراءة : هل العلماء يعرفون كل شيء ؟ ..

هم يخبروننا بأن الإنسان الحديث ظهر للوجود وأستعمر هذه الأرض قبل مائتي ألف عام , لكن ما الذي نعرفه عن هذه الآلاف المتمادية من السنين ؟ .. لا شيء تقريبا ! .. جل معرفتنا بالتاريخ البشري تكاد تنحصر في الخمسة آلاف عام الأخيرة , ولنكن أكثر تحديدا , منذ أن تعلم الإنسان الكتابة وترك لنا سجلات عن حياته وعقائده وملوكه وحروبه ومدنه . فالكتابة هي معيار المعرفة , ولهذا السبب فأن العلماء يعرفون الكثير عن جوانب الحياة القديمة في واديي النيل والرافدين لأن الشعوب التي أسست تلكما الحضارتين تركت لنا ملايين لفائف البردي الهيروغليفية وألواح الطين المسمارية إلى درجة أن الكثير منها لازال قابعا في مخازن المتاحف العالمية بانتظار من يفك رموزه ويقرأه . لكن ما الذي نعلمه بالمقابل عن تاريخ بريطانيا قبل الغزو الروماني لها عام ٤٣ ميلادية ؟ ..

لا شيء تقريبا ..

معقول ! .. بريطانيا العظمى , الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس .. تاريخها القديم مجهول ؟ ..

نعم هذا صحيح , والسبب ببساطة هو أن البريطانيون القدماء لم يكونوا مولعين بالكتابة والقراءة ولم يعرفونها أصلا , كانوا أقوما من البرابرة , لم يتركوا لنا أية معلومات عن أنفسهم , ولهذا السبب يقف العلماء اليوم فاغري الأفواه أمام صرح تاريخي عظيم مثل ستونهنج من دون أن يعلموا شيئا عن هوية بنائيه ولماذا تم بناءه أصلا . كل ما لديهم هي روايات تاريخية متضاربة تركها مؤرخو العصور الوسطى ويأبى العلماء تصديقها , من قبيل أن الساحر الشهير مرلين جلب قوما من العمالقة كانوا يسكنون أيرلندا في غابر الزمان وأستخدمهم في نقل الصخور الهائلة وتشييد هذا الصرح المهيب .

أسطورة يصعب تصديقها , أليس كذلك ؟ .. لكن إذا كانت هذه مجرد أساطير فكيف نفسر بناء صروح عظيمة مثل ستونهنج والأهرامات بواسطة عتلات ورافعات خشبية متهالكة وبسيطة ؟ .. ألا يبدو ذلك مستحيلا ؟ .

في بعلبك اللبنانية هناك صخرة عظيمة منحوتة من الحجر تدعى (صخرة المرأة الحامل) , هذه الصخرة قطعت من مقالع الحجر في جنوب المدينة وصقلت جوانبها بعناية , يبلغ طولها ٢١ مترا في حين يقدر وزناها بحوالي ١٥٠٠ طن . إنها صخرة عملاقة بكل معنى الكلمة , لكن حجمها هو ليس مدعاة الغموض الوحيد فيها , فالعلماء لا يعلمون من قام بقطعها وكيف أستطاع تحريكها ونقلها , المفروض أنها هيئت لتكون جزءا من المعابد الفاخرة التي شيدها الرومان في أرجاء المدينة , لكن العلماء اليوم يعتقدون بأن عمرها يعود إلى حقبة أقدم من عهد الرومان , ربما في زمن الاسكندر المقدوني , والمشكلة هنا أنهم لا يعلمون من كان يقطن المدينة

آنذاك , ذلك أن بعلبك برزت واشتهرت بعد الاسكندر حيث عرفت بأسم هليوبوليس , أي مدينة الشمس , أما قبل ذلك فيحيط الغموض تاريخها , لكن المعروف بأن المنطقة كانت قديما موطنا للفينيقيين والكنعانيين , ودليل ذلك أن أسمها هو من أصل سامي (بعل = الرب أو السيد) , وبالتالي فليس من المستبعد أن يكون أصحاب الصخرة هم من الكنعانيين , والكتاب المقدس يخبرنا بأن بعضا من أولئك الكنعانيين كانوا عمالقة , مما يتركنا أمام فرضيتين , أما أن من قطعوا الصخرة وحركوها كانوا يمتلكون معدات ورافعات متطورة شبيهة بالتي نملكها اليوم , وذلك لا يستقيم مع أزاميل النحاس وعتلات الخشب التي أمتلكها القدماء , وأما أن من قطعوا الصخرة وحركوها كانوا يمتلكون قوة بدنية هائلة , بعبارة أدق كانوا عمالقة , ولهذا لم يجدوا صعوبة كبيرة في زحزحة ورفع هذه الصخرة الهائلة .

قد يقول قائل بأن هذا الكلام هو محض هراء .. مجرد أساطير الأولين ..

ربما ..

لكن ألم تكن طروادة مجرد أسطورة سردها علينا هوميروس في أشعاره التي سطرها في ملحمته الشهيرة الإلياذة , وكان العلماء يقابلون القول بواقعية المدينة بابتسامة ساخرة , حتى ظهر لنا فجأة تاجر ألماني مولع بالآثار يدعى هاينريش شليمان , ذهب برفقة زوجته إلى تركيا وأستخرج لنا بقايا مدينة طروادة من تحت التراب عام ١٨٧٠ مسترشدا بأشعار الالياذة التي عدها الجميع لقرون متمادية مجرد خرافة ! .

وألم تكن قصص مدن الأنكا الضائعة خرافة أيضا , حتى زار مستكشف أمريكي مغمور يدعى هيرام بنغهام جبال الأنديز في بيرو عام ١٩١١ , هناك أرشده طفل من أحفاد الأنكا , في الحادية عشر من عمره , إلى أطلال مدينة عظيمة قابعة فوق السحاب , ماشو بيشو , المدينة المقدسة الضائعة التي صعق العلماء باكتشافها , لقد كانوا يسخرون من وجودها ويعتبرون الكلام عنها مجرد خرافة , فيما كانت هي لأربعة قرون تشمخ بصروحها الحجرية العظيمة فوق الجبل وتسخر من جهلهم وغرورهم .

أن هذه الأمثلة البسيطة توضح لنا بجلاء أن العلماء لا يعلمون كل شيء , وأن تاريخ البشر يغص بالفجوات الداكنة والحلقات المفقودة , الفراعنة مثلا تركوا لنا سجلا حافلا عن كل شيء , آلهتهم , كهنتهم , حياتهم , طقوسهم , مواسم حصادهم , فيضانات نيلهم , ضرائبهم , حروبهم .. ذكروا لنا حتى أسم الماشطة التي كانت تمشط شعر الملكة ! , لكنهم تغافلوا أو تعمدوا عدم التطرق لأهم وأعظم منجزاتهم .. الأهرامات .

صحيح أن هناك سجلات للعمال الذين ساهموا في تشييد الأهرامات , وكذلك تم اكتشاف مساكن تعود للعمال والمهندسين القدماء في الجيزة , لكن المحير هو أن الفراعنة لم يخبرونا أبدا كيف بنو الأهرامات , لا يوجد نقش أو رسم يصور العمال وهم يشيدون الهرم ويضعون الصخور الواحدة فوق الأخرى . ألا يبدو ذلك غريبا , خصوصا حين نعلم بأن المصريين القدماء كانوا مولعين بنقش وكتابة كل شيء عن تفاصيل حضارتهم , فكيف نسوا أن يحدثونا عن أهم حدث في تاريخ المملكة القديمة ! .. ولماذا

تركونا نتساءل بدهشة عن كيفية رفع هذه الصخور العظيمة إلى ارتفاعات شاهقة من دون رافعات حديثة ؟ .. ونحن هنا نتحدث عن مبنى بارتفاع يناهز المائة والأربعين مترا , أي ناطحة سحاب بارتفاع ثمان وخمسون طابقا , وعن صخور يصل معدل وزنها إلى ثلاثة أطنان , ناهيك عن أخرى , كتلك التي تغطي حجرة الملك , يصل وزنها إلى ما بين ٧٠ – ٨٠ طنا , فكيف رفعوها إلى هناك بواسطة حبال من القنب والكتان وبكرات من الخشب !! .

هل كان لدى المهندسون الفراعنة وسائل وأدوات وآلات نجهلها نحن اليوم , ماذا لو كانوا قد استخدموا قوما من العمالقة لحمل الصخور ووضعها في مكانها المناسب ؟ .. ألا يبدو ذلك تفسيرا منطقيا ؟! .. أم أنه هو أيضا .. مجرد هراء .

عمالقة العصور القديمة

الإغريق تركوا لنا أساطير كثيرة , واحدة منها جاءت على لسان الفيلسوف الشهير أفلاطون , تحدث فيها عن جزيرة عظيمة ذات سهول واسعة وجبال شاهقة تقبع في وسط المحيط الأطلسي , أهلها ذوو بأس وحكمة , أمتد سلطانهم إلى أقاصي الأرض الأربعة , لكن الآلهة سخطت على هذه الجزيرة لسبب ما فأرسلتها بمن عليها إلى قاع المحيط ولم ينجو سوى قليل من أهلها .

قصة القارة المفقودة لم تكن من وحي خيال أفلاطون , فهو سمعها نقلا عن كهنة مصر القدماء , أولئك الفلاسفة والسحرة العظام الذين حدثوا

الناس بما كان وسيكون . قالوا بأن شعب الجزيرة كان من العمالقة , يصل طول الواحد منهم إلى ضعف قامة الإنسان العادي وأنهم تفرقوا في الأرض بعد غرق قارتهم فأصبحوا ملوكا وآلهة وعلموا الناس الكتابة والمعمار وأرسوا أسس الحضارة . ولعل هذا يفسر لنا كيف ظهرت الحضارة فجأة في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد بعد أكثر من مائتي ألف عام من حياة الكهف والبربرية والظلام .

فجأة خلال خمسة آلاف عام فقط تطور الإنسان وصولا إلى مرحلة إرسال مركبات فضائية للقمر والمريخ , بينما لم يتطور قيد أنملة خلال مائتي ألف عام !!! . أليس ذلك محيرا , أليس مدعاة للظن بأن شيئا عظيما حدث قبل خمسة آلاف عام نقل الإنسان من مرحلة الكهف إلى مرحلة الحضارة , نقلة نوعية غيرت كل شيء إلى الأبد , لكنها لم تحدث من تلقاء نفسها , بل تمت على يد معلمين عظماء نقلوا الحكمة إلى البشر وأخذوا بيدهم نحو دروب العلم والحضارة , وعرفانا بالجميل , قام البشر برسم أولئك الأساتذة الحكماء على جدران قصورهم ومعابدهم , صوروهم كملوك وآلهة , وبينوا لنا بجلاء بأنهم ليسوا كالبشر , فهم أطول قامة وأضخم جثة بكثير .. أنهم عمالقة القارة المفقودة الذين تركوا أثارهم في كل جزء من أجزاء المعمورة ..

ومرة أخرى قد يقول البعض – وأنا منهم – أن هذا الكلام مجرد هراء .. لكن إذا كان كذلك , فبماذا نفسر هذا التراث المشترك عن العمالقة لدى جميع أمم الأرض ؟ ..

في اليابان لديهم الـــ أوني ..

في الهند لديهم الـــ دايتي ..

في الدول الاسكندنافية لديهم الـــ يوتون ..

في الباسك لديهم الـــ جنتل ..

في الفلبين لديهم الـــ كابري ..

في إيرلندا لديهم الـــ فوموير ..

في اليونان لديهم الـــ تيتان ..

وهناك أسماء كثيرة أخرى عفونا عن ذكرها خشية التطويل . خلاصة القول هو أن العمالقة موجودين في فلكلور وتراث جميع الشعوب . ولا تخلو الكتب الدينية أيضا من ذكرهم , فالعهد القديم من الكتاب المقدس يخبرنا عن الـــ نفيلم , وهم أقوام من العمالقة عاشوا على الأرض قبل طوفان نوح . وهناك أيضا الكنعانيين , قيل أنهم عمالقة , أو ربما بعض قبائلهم , ولعل الملك جالوت هو أشهر عمالقة الكنعانيين , كان ضخم الجثة يتراوح طوله بين المترين والثلاثة . وقد قتله النبي داود بعد أن رماه بحجر من مقلاعه , والقصة مشهورة معروفة .

وقد كتب المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيفيوس في القرن الأول الميلادي قائلا بأن الأموريين كانوا من العمالقة , والأموريون هم أقوام سامية استوطنت شمال الجزيرة العربية منذ الألف الثالث قبل الميلاد واختلط الكنعانيين معهم لاحقا . ويقول فلافيوس أن الناس في زمانه كانوا

يعثرون على هياكل عظمية عملاقة تعود لهذا الشعب الجبار المنقرض الذي يصفه كالآتي :

"كانت أجسادهم كبيرة جدا , وملامحهم تختلف تماما عن غيرهم من الناس , كانت رؤيتهم تثير العجب , وأصواتهم تثير الفزع . ما زالت عظام أولئك العمالقة تظهر في أيامنا هذه " .

النصوص العربية القديمة تخبرنا أيضا أن الكنعانيين كانوا عمالقة , وتنسبهم لقبيلة أو شعب قديم يدعى العماليق , من العرب البائدة , انقرضوا عن بكرة أبيهم نتيجة اختلاطهم بغيرهم من القبائل والشعوب , وقيل أن البعض منهم كانوا يسكنون يثرب , وأن عدة نفر منهم كانوا ما يزالون على قيد الحياة عند البعثة النبوية , وكانوا يوصفون بالقامة الفارعة الطويلة .

والعرب البائدة هم أقوام وشعوب سكنوا الجزيرة العربية في غابر الزمان , ومعلوم من أسمهم أنهم انقرضوا ولم يبقى لهم عقب , أما لهجرتهم لأماكن أخرى أو لكارثة حلت بهم أو لاختلاطهم وذوباتهم مع القبائل الأخرى .

وأشهر الشعوب البائدة هي : ثمود وعاد وجديس وطسم وجرهم وأميم وعبيل .

وقد ورد ذكر عاد وثمود في القرآن الكريم في أكثر من موضع . في سورة الأعراف يخاطب النبي هود قومه من عاد قائلا :

"وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ –٦٩–" .

وبحسب معظم كتب التفسير فأن البسطة في الخلق معناها زيادة في الأجسام والطول , ولهذا قيل أن عاد كانوا من العمالقة , وكانوا ذوو بأس شديد , شيدوا الصروح العظيمة التي ليس لها مثيل , وورد ذكر ذلك في سورة الفجر :

"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ –٦– إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ –٧– الّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ –٨–".

وكانت مساكن عاد في جنوب الجزيرة العربية , في منطقة ما بين اليمن وسلطنة عمان , ربما شمال حضرموت , وكانوا في غنى وثراء فاحش نتيجة تحكمهم بتجارة اللبان والصمغ العربي , كانوا يصدرون بضائعهم إلى الشام و مصر عبر طرق تجارية تمر بصحراء الربع الخالي , ولهم عدة مدن كبيرة أشهرها عبار , التي عرفت أيضا بـــ ارم ذات العماد , أي ذات الألف عمود , و قد ورد ذكرها في الكتابات اليمنية القديمة وبعض المصادر الإغريقية مما يؤكد صحة وجودها , لكنها مدينة ضائعة لم يعثر عليها المنقبون أبدا , يقال أنها تقبع تحت ملايين الأطنان من رمال صحراء الربع الخالي .

أما ثمود فقد استوطنوا شمال الجزيرة العربية , تحديدا في منطقة مدائن صالح في محافظة العلا بالمملكة العربية السعودية , وآثارهم المنحوتة في الحجر مازالت ماثلة للعيان حتى يومنا هذا وتدل على ثرائهم

وعظمة ملكهم . وقد ورد ذكرهم في العديد من المصادر التاريخية القديمة , الأشورية والإغريقية . وتذهب بعض المصادر العربية القديمة إلى أن قوم ثمود كانوا من العمالقة أيضا .

جدير بالذكر أن قولنا بأن فلان أمة أو قبيلة هي من العمالقة لا يعني بالضرورة أنهم كانوا يناطحون السحاب بقامتهم كما في أسطورة عوج بن عنق الشهيرة , الذي قيل بأنه نجا من طوفان نوح ولم يبلغ الماء ركبته , وأنه كان يحتجز السحاب في السماء فيشرب منه , ويأخذ الحوت من البحر فيرفعه بيده إلى الشمس فيشويه ويأكله ! . وإنما المقصود بالعمالقة هو أنهم كانوا أطول وأضخم من غيرهم من البشر بشكل واضح لا يقبل اللبس , والأرجح برأيي هو أن طولهم كان يتراوح بين المترين والثلاثة أمتار , وأن الأمر كان متوارث بينهم جينيا , أي كانوا يتشاطرون جينات خاصة تؤدي للعملقة , وهي حالة موجودة حتى في أيامنا هذه وسنأتي على ذكرها لاحقا .

لماذا لم نعثر على عظام عملاق ؟!

طيب إذا كان العملاقة موجودين بهذه الكثرة في العصور القديمة , فلماذا لم نجد أي بقايا عظمية تدل عليهم ؟ .. سؤال يطرح نفسه بقوة .

والجواب يمكن تلخيصه بشقين , الأول هو من قال بأننا لم نعثر على بقايا عظيمة ؟ .. والثاني هو نظرية المؤامرة .

ودعونا نتعرف على الشق الأول , فمن حين لآخر تطالعنا مواقع الكترونية على الانترنت بأخبار وصور تزعم بأن المنقبين عثروا على

هياكل عظمية تعود لبشر عمالقة , ومن المعلوم بالدليل أن أغلب تلك الصور مزيفة , تم تركيبها ودمجها بحرفية عالية بواسطة برامج تعديل الصور مثل الفوتوشوب وغيره . لكن من بين مئات القصص والصور المزيفة التي تتحدث عن اكتشاف هياكل عملاقة هناك قصتين أو ثلاثة تتسم بالواقعية وتستحق أن نتوقف عندها وسأوردها لكم بالتفصيل لأهميتها في فهم الشق الثاني من الجواب .

القصة الأولى من فرنسا ..

في شتاء عام ١٨٩٠ كان البروفيسور جورج دي لابوج ينقب في مقبرة قديمة تعود للعهد البرونزي بمنطقة كاستيلنو في جنوب فرنسا . تربة المقبرة كانت تضم عدة طبقات مما يدل على أن المنطقة مسكونة بالبشر منذ أمد بعيد . وفي قاع تلك الطبقات , في تربة تعود للعصر الحجري المتأخر , عثر البروفيسور على شيء أثار حيرته وذهوله . لقد استخرج من باطن الأرض ثلاثة عظام , كان واضحا أنها تعود لشخص واحد , وهي عبارة عن أجزاء من عظمة الساق والفخذ والعضد , وكانت من الضخامة بمكان بحيث يصعب تصور أنها تعود لإنسان بحجم طبيعي .

بعد دراسة متأنية توصل البروفيسور دي لابوج إلى أن صاحب هذه العظام كان ضخما وطويلا بصورة لا تصدق , يصل طول قامته إلى ثلاثة أمتار ونصف , ويزن مئات الكيلوغرامات .

للتأكد تم عرض العظام على عدد من الأساتذة في مجال الطب وعلم الإنسان وجميعهم توصلوا إلى استنتاج مشابه لذلك الذي توصل إليه

البروفيسور دي لابوج , أكدوا أنها عظام حقيقية تعود لإنسان عملاق . وقد كتبت مجلة الطبيعة الفرنسية بحثا كاملا عن تلك العظام في أحد أعدادها الصادرة آنذاك ونشرت صورها . وفي عام ١٨٩٤ تم إرسال العظام إلى جامعة باريس من اجل دراسة مستفيضة عنها , وهنا حدث شيء محير , إذ اختفت العظام ولم يرها أحد بعد ذلك ! .

قضية عملاق دي كاستيلنو تعد واحدة من القضايا النادرة التي يمكن القبول بمصداقيتها نظرا لأن جميع من تعاملوا معها كانوا أناس أكاديميون وعلماء مرموقون . لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل كانت هذه العظام تعود لحالة فردية نتيجة خلل جيني أم أنها تعود لقبيلة أو جنس من البشر العمالقة سكنوا فرنسا في تلك الحقبة السحيقة .

البروفيسور دي لابوج كتب لاحقا بأنه عثر في نفس الطبقة على قحف صبي عملاق , وقدر أن يكون طول الصبي يتجاوز المتران ! . وبعد ذلك بعدة أشهر , في منطقة تبعد حوالي ثلاثة أميال إلى الغرب من مقبرة دي كاستيلنو عثر المنقبون على جمجمة عملاقة تعود لإنسان قدر العلماء طوله بحوالي ٤ أمتار .

ومرة أخرى قاموا بإرسال القحف والجمجمة إلى جامعة باريس .. ومن جديد ضاع أثرها !.

قصتنا الثانية من أمريكا ..

في الغرب المتوحش الأمريكي توجد منطقة جافة تعرف بأسم الحوض العظيم , هناك عاش هنود البايوت لآلاف السنين وتدالوا حكاية قديمة عن قبيلة منقرضة كانت تنافسهم السيطرة على المنطقة في غابر الأزمان , تلك القبيلة كانت تدعى "سي تي كا" , وكان أفرادها يعيشون في كهف كبير , كانوا من العمالقة , أجسامهم ضخمة وقامتهم فارعة , ويتميزون بشعر أحمر ناري .

أكثر ما يخيف في رجال تلك القبيلة هو أنهم كانوا من أكلة لحوم البشر , لم يكونوا يتوانون عن التهام أي هندي من هنود البايوت يقع في أيديهم , وكانت الحرب سجال بين الطرفين حتى قرر البايوت أن يضعوا حدا لهذا العدو الغاشم الجبار , فتحالفوا مع غيرهم من القبائل وخاضوا معركة فاصلة مع العمالقة كانت الغلبة فيها للكثرة والعدد على حساب القوة والضخامة , ولم ينجو من تلك المعركة الدامية سوى أفراد قليلين من العمالقة انسحبوا إلى كهفهم واختبئوا هناك , لكن البايوت وحلفائهم لم يتركوهم , كانوا قد عقدوا العزم على استئصال عدوهم بشكل كامل , فلحقوا بالعمالقة إلى كهفهم المظلم وصرخوا فيهم طالبين منهم الخروج , لكن العمالقة رفضوا الخروج وتحصنوا بكهفهم , فقام البايوت بجمع الحطب ووضعوه عند مدخل الكهف وأضرموا فيه النار فأنتشر الدخان سريعا إلى داخل الكهف . حاول بعض العمالقة النجاة من الموت اختناقا فخرجوا من الكهف لتتلقاهم سهام البايوت القاتلة , أما الباقين ففضلوا أن يختنقوا بالدخان حتى الموت على مواجهة السهام الفتاكة . وهكذا قضي على جميع أفراد قبيلة العمالقة .. وإلى الأبد .

ولقرون طويلة لم تكن حكاية العمالقة آكلي لحوم البشر سوى قصة مرعبة يستمتع الناس بسردها , لكن هنود البايوت كان يصرون على كونها حقيقية . وفي كتاب عن تاريخ القبيلة زعمت ابنة أحد زعماء البايوت بأن لديها خصلة شعر حمراء تعود لأحد أولئك الأعداء العمالقة , قالت بأنهم يتوارثونها أبا عن جد كدليل على حقيقة انتصارهم التاريخي على أعدائهم العمالقة .

كهف العمالقة مازال موجودا حتى يومنا هذا , يعرف بأسم كهف لوفلوك في نيفادا , يقول العلماء أنه كان مسكونا بالبشر منذ العصر الحجري وحتى ألف عام مضت , بعد ذلك ظل الكهف مهجورا لا يدخله سوى أسراب الخفافيش التي اتخذت من سقفه مسكنا لها , وعلى مدى قرون تراكم براز هذه الخفافيش حتى غطى أرضية الكهف وأرتفع لعدة أمتار .

وفي عام ١٩١١ قررت إحدى شركات السماد الاستفادة من براز الخفافيش في الكهف , فالمعروف أن براز الخفافيش هو من أفضل أنواع الأسمدة , لذلك تم استئجار رجلين لجمع البراز من الكهف ومن ثم إرساله إلى مصنع الشركة . ولعدة أشهر جمع الرجلان مئات الأطنان من البراز , ومع كل طن يخرج كانا يقتربان أكثر من قاع الكهف , وفي أحد الأيام بينما كانا يعملان عثرا على جثة مدفونة تحت البراز , ثم عثروا على جثة ثانية وثالثة ورابعة ... المذهل أن هذه الجثث كانت بأحجام عملاقة وذات شعر أحمر . أي نفس أوصاف البايوت لأعدائهم العمالقة .

لسوء الحظ لم يكن الرجلان مهتمان كثيرا بالجثث , كانا يريدان العثور على أشياء ثمينة , لذلك تم رمي الجثث بعيدا بدون اعتناء فتفسخت

وضاعت , لكن أنباء الاكتشاف انتشرت سريعا , وفي عام ١٩١٢ أرسل متحف الانتروبولجي (علم الإنسان) في جامعة كاليفورنيا أحد موظفيه لينقذ ما يستطيع إنقاذه من البقايا والجثث التي تم العثور عليها في الكهف , لكن عمل هذا الموظف كان رديئا جدا ولم يستطع إنقاذ أي شيء .

بعد سنوات أرسلت بعثة أخرى , وتلتها بعثات , وتم الكشف عن آلاف القطع القديمة التي يعود بعضها إلى ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد , ومن بين ما عثر عليه هو جماجم عملاقة أرسلت إلى متحف هومبولت في بلدة ينيموكا في نيفادا حيث وضعت في قبو المتحف وكانت تعرض بشكل محدود لبعض الزوار فقط . صور هذه الجماجم موجودة على النت , ويقول البعض بأن حجمها دليل على أن أصحابها كانوا بطول ثلاثة أمتار وأكثر . في حين أن المتحف وفي صفحته الرسمية على الانترنت – تجدها ضمن المصادر – يقول بأن حجم الجماجم طبيعي لكنها ذات سمات تتصف بالقوة والصلابة .

وبغض النظر عما يقوله المتحف , فمع ازدياد الاهتمام بهذه الجماجم مؤخرا اتخذت إدارة المتحف خطوة مريبة ومحيرة حيث قامت برفع الجماجم من العرض ومنعت رؤيتها تماما . الإشاعات تقول بأن رفع الجماجم من العرض سبقه قدوم رجال غامضين يستقلون سيارات سوداء مظللة , كان من الواضح أنهم أشخاص مهمين ذوو نفوذ , ويقال بأنهم ضغطوا على أدارة المتحف لكي ترفع الجماجم من العرض , وهناك من يزعم أنهم اجبروا المتحف على تدمير الجماجم . أما أدارة المتحف فتقول عبر صفحتها الرسمية الموجودة على الانترنت بأنها حجبت الجماجم بناء

على طلب من جمعيات السكان الأصليين (الهنود الحمر) التي اعتبرت أن عرض الجماجم هو بمثابة تدنيس لحرمة أجدادهم .

نظرية المؤامرة

أن ضياع الأدلة واختفاءها في القصص التي ذكرناها آنفا دفع البعض لطرح نظرية المؤامرة . وبحسب أصحاب هذه النظرية فأن هناك أدلة تاريخية كثيرة ومؤكدة تثبت وجود جنس من العمالقة عاشوا على الأرض في حقب تاريخية مختلفة . وأن العلماء يكتشفون كل عام المزيد من هذه الأدلة حول العالم . لكن بالمقابل هناك جهات وجمعيات ومنظمات سرية ذات نفوذ كبير تسعى للتكتم والتستر على هذه الاكتشافات بكل وسيلة متاحة لديها , وبعض هذه الوسائل قد تصل إلى اغتيال العلماء وتدمير مكتشفاتهم الأثرية , وفي حال فشلوا في ذلك , أي في تكميم أفواه العلماء وتدمير الآثار فأنهم عوضا عن ذلك يبدءون بشن حملة شرسة للتشكيك في مصداقية تلك الاكتشافات والترويج لكونها مزيفة .

إذن لماذا يفعلون ذلك ؟ .. ما الغرض ؟ ..

بحسب أصحاب نظرية المؤامرة فأن تلك الجهات والمنظمات ذات النفوذ عملت لقرون على تزوير التاريخ وإخفاء الحقائق عن الناس من اجل أن تتمكن من نشر أفكارها وأجندتها وتنفيذ مخططاتها , خصوصا فيما يتعلق بالأمور الروحية والعقائدية , فقد دأبوا على تشكيك الناس بمعتقداتهم ودفعهم لقبول الرأي القائل بأن الأديان هي مجرد أساطير وأكاذيب وأن

جميع ما مذكور في الكتب المقدسة حول المعجزات والطوفان والأمم السابقة الخ .. هي مجرد خرافات لا أساس من الصحة لها . وبالمحصلة تعزيز وحماية النظام العالمي القائم على المادية والعلمانية والرأسمالية وضمان استمراره للحفاظ على نفوذ وثراء أقلية من البشر تتحكم بالعالم من خلف الستار .

لكن نظرية المؤامرة لا تحظى بقبول الجميع , هناك بالمقابل جهات علمية تحاول إعطاء تفسيرات مقنعة لكل التراث الشعبي والديني عن العمالقة , ومن هذه التفسيرات :

١ – بالنسبة لحديث الناس حول العثور على بقايا وهياكل عظيمة تعود لعملاقة فأن المشكلة الرئيسية هي أن أغلب الناس ليس بإمكانه التفريق ما بين العظام البشرية والحيوانية , فقد يعثر أحدهم على عظم فخذ ضخم جدا مما يدفعه للاعتقاد بأنه يعود لعملاق في حين أنه مجرد فخذ بقرة ! , حتى المنقبين والباحثين الأكاديميين قد يقعون في هذا الخطأ , ولهذا يتم إرسال عينة من العظم إلى المختبر للتأكد من كونها بشرية . من جهة أخرى فأن الناس في العصور القديمة كانوا يعثرون على عظام ضخمة لديناصورات وماموث , ولأنهم في ذلك الزمان لم يكونوا يعرفون شيئا عن هذه الحيوانات المنقرضة , لذلك كانوا يعتقدون خطأ بأنها تعود لعمالقة من البشر .

٢ – العمالقة كانوا موجودين حتما في العصر القديم كما هم موجودون في العصر الحديث , والمقصود بالعمالقة هنا هم البشر الذين

يتراوح طولهم بين المترين والثلاثة , وهي حالات قد تحدث بسبب مشاكل في إفرازات الغدد المتحكمة بنمو الجسم . وقد يحدث أحيانا عند نبش المقابر القديمة أو الكهوف المهجورة أن يتم العثور على بقايا عظمية لهؤلاء البشر طوال القامة فيظن الناس أنها تعود لجنس من العمالقة عاش على الأرض في الماضي السحيق .

طول القامة أو قصرها يمكن أيضا أن يكون وراثيا , فهناك قبائل كاملة من الأقزام تعيش في أفريقيا وآسيا وغابات الأمازون . وهناك أيضا قبائل تتصف بطول القامة , في أمريكا مثلا تسببت قبيلة الكارانكاوا بالصدمة للمستكشفين الأوربيين لأن رجال هذه القبيلة كانوا يتسمون بقامة فارعة تتجاوز المترين , كانوا مقاتلين أشداء , وأكلة لحوم البشر , وكان طول القامة متوارثا فيهم . بناء على ذلك فمن المؤكد أنه خلال التاريخ كان هناك بشر قصار جدا بحيث يطلق عليهم أقزام وبشر طوال جدا بحيث يطلق عليهم عمالقة , وهؤلاء العمالقة كانوا بقامة تتراوح بين المترين والثلاثة , أما أطول من ذلك , أي الزعم بوجود أشخاص بطول أربعة وخمسة وعشرة أمتار ... فيبدو أقرب للخيال منه إلى الحقيقة , ذلك أن أي شخص بقامة تتجاوز الثلاثة أمتار سيجد صعوبة كبيرة في المشي والتغلب على مشاكل الجاذبية , فالطول الفارع غالبا ما يكون رديفا لأمراض عديدة , وغالبا ما ينتهي بالشلل والموت المبكر .

عمالقة العصور الحديثة

إذا كنا قد افتتحنا هذا المقال بالحديث عن عمالقة العصور القديمة فالأفضل أن ننهيه بالتطرق إلى عمالقة العصور الحديثة , وبسبب العدد الكبير من العمالقة الذين ظهروا في العصر الحديث فسنكتفي بأخذ عينة صغيرة منهم تتضمن الأكثر طولا وشهرة .

العملاق اللطيف

في الأفلام وقصص الخيال غالبا ما يكون العملاق مثالا للؤم والعجرفة , لكن العملاق روبرت وادلو كان مثالا للطيبة والتواضع حتى أنهم أطلقوا عليه أسم "العملاق اللطيف" . روبرت ولد عام ١٩١٨ في مدينة ألتون بولاية إلينوي , الابن البكر لأبيه , كان طوله طبيعيا عند ولادته , لكن سرعان ما لاحظت عائلته بأنه ينمو بوتيرة متسارعة حتى أنه أصبح بطول مترا ووزن ٢٠ كغم في سن ١١ شهر وبدأ يمشي .

في الثامنة أصبح أطول من أبيه (١,٨٢ متر) , وصار يتمتع بقوة هائلة بحيث أنه كان يرفع أبيه وهو جالس على كرسيه حاملا إياه من الطابق الأرضي إلى الطابق العلوي من منزلهم .

سرعان ما بدأ روبرت يسترعي انتباه الجميع , أينما ظهر كانت الأنظار تتوجه صوبه , ومع هذا فقد حاول أن يعيش حياة طبيعية فدرس وأجتهد وأكمل دراسته الثانوية ودخل الجامعة ليدرس القانون , وكانت له هوايات بسيطة مثل جمع الطوابع والمشاركة في مخيمات الكشافة . لكن

استمرار النمو لدى روبرت تسبب له بالتدريج بمشاكل جمة وأجبره على التخلي عن أحلامه وآماله . كان قد أصبح بطول (٢,٥٤ متر) في سن السابعة عشر , وكانت هذا الطول له متطلبات خاصة من ملابس وأحذية وسرير وكرسي يلاءم حجمه , وكان بحاجة أيضا لدعائم حديدية لمساعدة رجليه على تحمل وزنه الثقيل .. ولأن هذه الأمور كانت تكلف أموالا طائلة لذلك بدأ في الظهور بإعلانات لشركات مقابل توفير تلك المتطلبات , فمثلا كان يظهر في إعلان لشركة أحذية مقابل أن يصنعوا له حذاء خاصا لقدمه الكبيرة جدا . ولاحقا بدأ روبرت يظهر في عروض السيرك والمهرجانات , وذهب في جولتين برفقة والده حول الولايات المتحدة , تجولا عبر المدن والبلدات , وكان أبيه قد رفع مقعد الراكب الأمامي في سيارته لكي يتيح لروبرت الجلوس براحة في المقعد الخلفي ويمد رجليه . ومما يثير الإعجاب هو أن روبرت خلال جميع تلك العروض والمهرجانات لم يتخلى أبدا عن أناقته وحسن هندامه .

في العام ١٩٣٩ أصبح روبرت أطول رجل في العالم رسميا . ومع استمرار نموه بدأ يواجه صعوبات كبيرة في المشي مما أضطره لاستعمال عصى .

أثناء ظهوره في احد المهرجانات عام ١٩٤٠ تعرض روبرت لجرح في رجله بسبب تركيب خاطئ للدعامة الحديدية , ولسوء الحظ فقد تلوث الجرح وأدى إلى التهاب خطير , وقد حاول الأطباء إنقاذ روبرت عن طريق تبديل دمه , لكن حرارته استمرت بالارتفاع حتى وافته المنية أثناء نومه في ١٥ تموز / يوليو عام ١٩٤٠ عن عمر يناهز ٢٢ عاما .

روبرت كان محبوبا من قبل الجميع , وقد ألهمت حياته القصيرة الكثيرين بسبب محاولاته الحثيثة على التكيف مع وضعه والعيش كإنسان عادي . عند وفاته قامت جميع المتاجر والدكاكين بإغلاق أبوابها في مدينة ألتون احتراما له , وحضر جنازته ٤٠ ألف إنسان , وقد كان تابوته من الضخامة بحيث احتاج لقرابة عشرين شخص لرفعه . , وهناك اليوم تماثيل عديدة مبثوثة في أرجاء الولايات المتحدة تخليدا لذكراه .

طول روبرت بلغ قبيل موته (٢,٧٢ متر) ووزنه (١٩٩ كغم) . ومازال حتى يومنا هذا يحتفظ بالرقم العالمي القياسي كأطول رجل في العالم . جدير بالذكر أن النمو الغير طبيعي والمستمر لروبرت سببه خلل في إفرازات الغدة النخامية , وهذه الحالة يمكن معالجتها وإيقافها اليوم , لكن في العشرينات من القرن الماضي لم يكن لها علاج .

روبرت كان له شقيقتان وشقيقان وجميعهم كانوا بقامة عادية . أمه أيضا كانت سيدة قصيرة القامة وكان هو متعلق بها بشدة .

العملاق الروسي

في إحدى قرى بيلاروسيا النائية ولد فيدور ماخنوف عام ١٨٧٨ , وتوفيت أمه أثناء ولادته فعاش يتيما مع جديه فيما تزوج والده من امرأة أخرى .

في طفولته كان فيدور طفلا ذو قامة عادية , لكن في سن الثامنة بدأ ينمو بصورة غير طبيعية , وأصبح ينام طوال النهار لأيام عديدة . وعند

بلوغه العاشرة أخذه والده الفلاح لكي يساعده في الزراعة , وكان الأب قد أنجب أطفالا آخرين وكلهم كانوا بقامة عادية .

في العاشرة أصبح طول فيدور مترين , كان عملاقا بعقل صبي صغير , أحب اللعب مع الأطفال وكان ذو روح طيبة , لكن صاحب الأرض التي يعمل فيها والده شاهده فأعجب بطوله وضخامته وطلب من والده أن يرسله ليعمل لديه , وكان علمه يتمثل في إبعاد الصخور التي تعيق عمل طاحونة مائية , كان عملا شاقا ترك أثرا سيئا على صحة فيدور لما تبقى من حياته بسبب برودة مياه النهر التي كان يجب أن يعمل فيها لساعات طويلة كل يوم .

في السادسة عشر بلغ طول فيدور (٢,٥٤) متر , فأضطر أبيه إلى رفع مستوى سقف كوخه , وطلب من حداد القرية أن يصنع سريرا خاصا لأبنه , وحين انتهى الحداد من صنع السرير كان فيدور قد تجاوز في طوله طول السرير .

الحدث الذي غير حياة فيدور تمثل في رؤيته من قبل صاحب سيرك ألماني , الرجل أصيب بالذهول لطول الفتى وضخامة جثته فعرض على والده أن يأخذه معه لكي يعمل في السيرك , ووافق الوالد الذي كان قد ضاق ذرعا بمصاريف ابنه بسبب متطلباته الخاصة .

صاحب السيرك الألماني اخذ فيدور إلى ألمانيا , وضع له معلمين خصوصيين ليعلموه القراءة والكتابة ووقع معه عقدا للعمل في السيرك مقابل راتب مجزي , ولمدة تسعة سنوات تنقل فيدور ما بين المهرجانات

وعروض السيرك , كانت الفقرة التي يقدمها تثير حماس ودهشة الجمهور , وخلال سنين قليلة جمع ثروة لا بأس بها من علمه .

بعد انتهاء عقده مع السيرك عاد فيدور إلى موطنه , كان الآن شابا في منتصف العشرينات , وبقامة تناهز ٢,٧٠ متر . وحال عودته اشترى أرضا وشيد منزلا كبيرا يتلاءم مع احتياجاته كعملاق , ثم راح يبحث بلا هوادة عن عروس ترضى بالزواج من عملاق مثله , وبعد بحث طويل عثر على ضالته في معلمة تعمل في بلدة نائية , كانت عروسه طويلة القامة بالنسبة لامرأة لكنها مع ذلك كانت اقصر من عريسها بقرابة المتر , وقد أثمر زواجهما عن ابنة وثلاثة أولاد كلهم كانوا بقامة طبيعية .

كلما احتاج فيدور إلى المال كان يقوم بجولات في أنحاء الإمبراطورية الروسية , يستعرض قامته الفارعة في المهرجانات وعروض السيرك والحفلات الخاصة للنبلاء , وكانت قد بلغ الآن درجة من الشهرة بحيث راحت الصحف الروسية والأجنبية تكتب عنه , وكانوا قد أطلقوا عليه أسم "العملاق الروسي" , وبدأ يتلقى عروضا للقيام في جولات في أرجاء العالم , فزار انجلترا وألمانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وايطاليا والولايات المتحدة .

في ألمانيا تناول فيدور العشاء مع المستشار الألماني , وفي ايطاليا قابله البابا شخصيا وأهدى لأبنته صليبا من الذهب , وفي أمريكا قابله الرئيس روزفلت شخصيا .

ومن غرائب ما نشرته صحف تلك الأيام عن فيدور كانت التفاصيل المتعلقة بطعامه , فكل صباح يتكون فطوره من ٢٠ بيضة وثمانية أرغفة

كبيرة من الخبز ولترين من الشاي , أما وجبة الغداء فتتكون من ٢,٥ كغم من اللحم مع ١ كغم من البطاطا وثلاث لترات من الجعة , في حين تتكون وجبة العشاء من وعاء كبير من الفواكه مع ٢,٥ كغم من اللحم وثلاثة أرغفة كبيرة من الخبز ولترين من الشاي , وقبل أن يذهب إلى سريره لينام كان يتناول ١٥ بيضة مع رغيف خبز كبير ولتر واحد من الشاي أو الحليب.

السفر الطويل والمستمر بدأ يؤثر بالتدريج على صحة فيدور , كان يعاني كثيرا من الجلوس الطويل في مقاعد وأسرة صغيرة داخل القطارات والسيارات والسفن والفنادق , وأثر ذلك على حركته فأصبح يعاني من صعوبة في المشي وراح يستعمل عصا للوقوف , وفي أواخر حياته أصيب بحالة نفسية حيث أصبح يشعر بالخوف على حياته , كانت العديد من المتاحف والمؤسسات العلمية قد اتصلت به وطلبت منه أن يتبرع بجسده إليها بعد موته , وقد أرعبه ذلك , وظن بأنه قد يتعرض للقتل .

في عام ١٩١٢ مات العملاق فيديور ماخنوف في سن الرابعة والثلاثين , السبب الرسمي لموته هو أصابته بالسل , لكن هناك إشاعات تزعم أنه تعرض للتسميم لغرض سرقة جسده أو من قبل عروض سيرك منافسة .

عند موته كان فيدور قد بلغ طول ٢,٨٢ متر . أي أنه أطول من الأمريكي روبرت والدو بعشرة سنتمترات , لكن بسبب عدم توثيق طوله بصورة رسمية فقد أصبح لقب أطول رجل في العالم من نصيب والدو .

أطول الأحياء من الرجال والنساء ؟

حاليا فأن لقب أطول رجل في العالم هو من نصيب التركي سلطان كوسين بطول ٢,٥١ متر . وهو مولود عام ١٩٨٢ لعائلة بسيطة تتكون من الوالدين وأربعة أولاد وبنات كلهم بقامة عادية . في الحقيقة فأن كوسين يتشارك مع غيره من العمالقة في سبب طوله الفارع , وهو خلل في إفرازات الغدة النخامية , وهذا الخلل حدث لديه نتيجة أصابته بورم سرطاني . ومثل غيره من العمالقة فأن كوسين يعاني من صعوبة في المشي وعدم إحساسه بقدميه , وهو يستعمل عصا للوقوف .

الجيد في حالة سلطان هو أن الأطباء في كلية الطب بجامعة فيرجينيا بأمريكا نجحوا في إيقاف نموه وسيطروا على إفرازات غدته النخامية بعد عامين من العلاج . وقد تزوج سلطان مؤخرا من شابة سورية تدعى مروة ديبو وهي بطول ١,٧٥ متر .

بالنسبة للنساء فهناك جدل حول من هي أطول امرأة في العالم حاليا , بحسب بعض المواقع فأن الصينية سن فانغ هي من تحمل اللقب بطول ٢,٢١ متر . وبحسب مواقع أخرى فأن الهندية صديقه بروين هي حاملة اللقب بقامة يبلغ طولها ٢,٣٣ متر , أما أطول امرأة في العالم في فئة الشباب , بحسب موسوعة جينيس , فهي التركية رميسا جيلجي ذات السبعة عشر عاما . أما أطول امرأة على الإطلاق عاشت على الأرض في العصر الحديث فهي الصينية زنك جنليان بطول ٢,٤٨ متر , وهي للعلم المرأة الوحيدة التي حملت لقب أطول إنسان في العالم متفوقة بذلك على

الرجال . ومثل غيرها من العمالقة فقد عانت كثيرا بسبب طولها ووزنها وماتت في سن مبكرة جدا .

ختاما ..

بعد كتابتي لهذه القصص لم يعد أسم العملاق مرادفا للقوة والغرور في نظري , بل أصبح يستدر العطف والشفقة , فعلى ما يبدو , ومن خلال ما قرأت , فأن حياة أولئك العمالقة لم تكن سعيدة أبدا , كانت تضيق بهم الأماكن فلا يستطيعون نوما ولا جلوسا , وتضيق بهم أقدامهم فلا يستطيعون مشيا ولا وقوفا , وتضيق بهم قلوبهم فلا يجدون شريكا ولا حبيبا , وتضيق بهم أجسادهم فتطالهم الأمراض سريعا ويموتون مبكرا .. أظن أن الإنسان ليس بحاجة لطول القامة لكي يكون عملاقا , جميعنا نستطيع أن نغدو عمالقة , بأفعالنا وتصرفاتنا وأخلاقنا .. ولعمري فأن هناك من قصار القامة , من الزعماء والعلماء والأتقياء , من يطاول السحاب بهامته ويسمو فوق جميع العمالقة .